الفصل الثالث

الأقنعة الدينية

التراث الديني مصدر غني من مصادر الإلهام الأدبي، يستمد منه الأدباء موضوعاتهم ونماذجهم الأدبية. والأدب العالمي يحفل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي تدور حول الدين. وقد كان الكتاب المقدس مصدراً للأدباء الأوربيين الذين استمدوا منه شخصيات ونماذج أدبية، كما كان القرآن الكريم مصدراً من المصادر التي استمدّ منها الأدباء موضوعاتهم وشخصياتهم في بعض أعمالهم الأدبية. وقد استفاد منه الأدباء الغربيون أيضاً كالشاعر الألماني (غوته) في ديوانه (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، والشاعر الإيطالي (دانتي) في (الكوميديا الإلهية)، و(فكتور هوغو) في ديوانه (المشرقيات)، وغيرهم.

ويمكن تصنيف الأقنعة الدينية التي عبّر بعض شعرائنا المعاصرين من خلالها في مجموعتين:

1- أقنعة الأنبياء.

2- أقنعة الصحابة.

1- أقنعة الأنبياء:

لعل شخصيات الأنبياء عليهم السلام من أكثر شخصيات التراث الديني شيوعاً في شعرنا المعاصر، فقد وصفوا حياتهم ومعجزاتهم. ولكنهم تحرّجوا من التحدث بلسانهم، أو اتخاذهم أقنعة يعبرون من خلالها عن معاناتهم المعاصرة، ولذلك كانت القصائد التي حملت فيها شخصيات الأنبياء دلالات عامة هي الأكثر والأعم، وعلى الخصوص شخصية الرسول محمد $ فقد تحرّجوا من التأويل فيها. ذلك أننا نجد كثيراً

من الشعراء نظموا السيرة النبوية، وصوّروا معجزاته $. ولكننا لا نجد واحداً منهم تحدّث بلسانه. سوى صلاح عبد الصبور في قصيدته (الخروج)[1] التي أراد أن يعبر بها عن تجربة خروجه هو من وطنه، فأسقط تجربته على هجرة الرسول $ من مكة إلى المدينة، فقال:

أخرج من مدينتي، من موطني القديم / مطّرحاً أثقال عيشي الأليم
فيها، وتحت الثوب قد حملت سرّي
دفنته ببابها، ثم اشتملت بالسماء والنجوم

وإذا كان الرسول محمد $ قد اختار أبا بكر ليصحبه في الطريق، ويفديه بنفسه، حين دخل الغار الذي اختبأ فيه قبله، ليستكشف ما فيه، حرصاً على الرسول $، فإن شاعرنا المعاصر لم يختر أياً من أصحابه، ليكون رفيق رحلته، لأنه يهدف لا إلى الخلاص من مدينته، بل من ذاته الموبوءة:

لم أتخيّر واحداً من الصحاب
لكي يفديني بنفسه، فكل ما أريد قتلَ نفسي الثقيلة

كذلك يستعيد الشاعر حادثة نوم الإمام علي في فراش النبي $ تضليلاً لكفار قريش. لكن الشاعر لم يترك أحداً من أصحابه في فراشه، ليضلل طالبيه، لأنه لا أحد يطلبه، وإنما هو الذي يطلب ذاته القديمة، ليهرب منها:

ولم أغادرْ في الفراش صاحبي يضلل الطِلاب
فليس مَنْ يطلبني سوى أنا القديم

كما يذكر حادثة لحاق قريش برسول الله $، وتتبع آثاره، حيث لحقه (سُراقة)، فدعا عليه رسول الله $، فساخت قوائم فرسه في الرمل:

سوخي إذن في الرمل سيقان الندم
لا تتبعيني نحو مهجري، نشدتك الجحيم.

أما شخصية النبي (نوح) (عليه السلام)، فمن المعروف عنه أنه أنذر قومه بالطوفان، وصنع فلكاً ركب فيها مَنْ رغب النجاة من المؤمنين بالله. وأن السماء فتحت أبوابها أنهاراً، فأغرقت كل شيء. ثم جاء أمر الله:

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ. . .)[2]

كما جاء في القرآن الكريم. وقد تقنّع أدونيس بشخصية النبي نوح (عليه السلام) فجعل نفسه نوحاً جديداً في قصيدته (نوح الجديد)[3] فأشار إلى رفضه للواقع، والتمرد عليه، وتطهير الأرض من ذنوب البشر وخطاياهم. ولكنه عصى أوامر الإله،

---

[1] صلاح عبد الصبور - ديوانه: أحلام الفارس القديم - الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت 1970، ص235.
[2] سورة هود: الآية 44.
[3] أدونيس - الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت 1970، ص 498.

حين أزاح الطين عن محاجر الميتين، وأراد لهم غسل أعماقهم:

يقول لي: يا نوح انقذْ لنا / الأحياء - لم أحفلْ بقول الإلهْ
ورحتُ في فُلكي / أزيح الحصى والطين عن محاجر الميّتين
أفتح للطوفان أعماقهم.

كذلك تقنّع الشاعر عبد العزيز المقالح بالنبي نوح في قصيدته (مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان)[1] فأسقط تجربته المعاصرة على التجربة الدينية للنبي نوح، حيث قام بدور التنبؤ والإنذار، فحذّر قومه من ضلالهم الذي سيجلب عليهم الدمار، ولكنهم لم يستجيبوا له، فطغى عليهم الطوفان:

لكنكم لم تسمعوا، تعالت الضحكات / في ردهات القات
أقعى الضمير في دياركم ومات
فكان هذا الهول والأحزان
وقد طغى الطوفان.

وأما شخصية السيد (المسيح) (عليه السلام) فقد أطلق الشعراء المعاصرون لأنفسهم عنان تأويل ملامحها في الصلب، والفداء، والحياة من خلال الموت... فالسياب مثلاً يصوّر نفسه، في غربته، وهو يحمل حنينه إلى وطنه العراق، بصورة مسيح يجرّ صليبه:

فأنا المسيح يجرّ في المنفى صليبه[2]

وقد تقنع السياب بشخصية السيد (المسيح) (عليه السلام)، ليعبر من خلاله، عن تجربته الخاصة التي تصوّر تضحية الشاعر في سبيل أمته، واستشهاده في سبيل بعثها مستفيداً من فكرة صلب المسيح وفدائه للعالَم، وفكرة البعث من خلال الموت، متوحداً بشخصية السيد المسيح في قصيدته (المسيح بعد الصلب)[3] حيث يقول:

والصليب الذي سمّروني عليه طوال الأصيل
لم تمتني، وأنصتّ. كان العويل
يعبر السهل بيني وبين المدينه / مثل حبل يشدّ السفينة / وهي تهوي إلى القاع...

ويلحّ الشاعر على فكرة الحياة من خلال الموت، فيبرزها بأكثر من صورة، مستفيداً من عبارات السيد المسيح التي قالها لتلاميذه في العشاء الأخير، حيث «أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي. واخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي

---

[1] عبد العزيز المقالح - ديوانه: لا بدّ من صنعاء، ص33.
[2] بدر شاكر السياب - ديوانه: أنشودة المطر، قصيدة: غريب على الخليج، ص 317.
[3] نفسه، قصيدة: المسيح بعد الصلب، ص 457.

للعهد الجديد، الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا»[1].

ويرى السياب أن عذابه وتضحيته قد طهّرته. فلم يبق منه إلا ما هو إلهي ومقدس، وأنه سيحيا في الأجيال التالية التي تستفيد من تضحيته، فيقول:

مُتُّ كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم
كم حياة سأحيا، ففي كل حفرة / صرت مستقبلاً، صرت بذرة / صِرت جيلاً من الناس،
في كل قلب دمي، قطرة منه أو بعض قطره.

ثم يصوّر الشاعر عودته / عودة السيد المسيح إلى الحياة بعد الموت، مما يفاجئ (يهوذا) الذي خان المسيح، فباعه، ودلّهم عليه، لقاء دريهمات:

هكذا عدت، فاصفرّ لما رآني يهوذا، فقد كنت سرّه
كان ظلاً قد اسودّ مني، وتمثّال فكرهْ
جمدت فيه، واستلت الروح منها.

وقد نجح السياب في التوحّد بشخصية السيد المسيح، والتماهي معه، حيث وجد في كل ملمح من ملامحها بُعداً من أبعاد تجربته الشخصية، فمزج بين التجربتين والشخصيتين، فأصبحتا شخصية واحدة.

كذلك اتخذ الشاعر خليل حاوي السيد المسيح قناعاً، فعدّ نفسه مسيحاً يتحمل عذاب الصلب وآلامه، من أجل بعث عربي جديد، وذلك في قصيدته (حب وجلجلة)[2] حيث يقول:

وليكن ما كان، ما عانيت منها / محنة الصلب، وأعياد الطغاهْ
أنتم أنتن يا نسل إله / دمه ينبت نيسان التلال
أنتم أنتن في عمري مصابيح. مروج، وكفاهْ.

ولمحمد عمران قصيدة (أنا الذي رأيت)[3] تقنّع فيها بالسيد المسيح، ورأى أن قَدَر الثوري هو أن يكون مسيحاً فادياً، يفدي البشر بتضحيته بنفسه. ولكن المأساة هي أنه بلا قيامة، أي بلا انبعاث، فواقع (ثمود) لا يوحي بذلك:

جلجلتي أعرفها، وخشبَ الصليب
واعرفُ المسمارَ، والعلامهْ
وأنني بلا قيامهْ.

وليوسف الخال قصيدة (التوبة)[4] اتخذ فيها السيد المسيح قناعاً أيضاً.

كذلك تقنّع الشعراء بشخصية (لعازر)، وهي شخصية من الإنجيل. حيث مات لعازر، وبعثه السيد المسيح بعد ثلاثة أيام من موته. وقد تقنّع خليل حاوي بشخصية

---

[1] إنجيل متى: الإصحاح السادس والعشرون.
[2] خليل حاوي - ديوانه: نهر الرماد - الأعمال الكاملة، ص 103.
[3] محمد عمران - ديوانه: أنا الذي رأيت، وزارة الثقافة - دمشق 1978، ص 107.
[4] يوسف الخال - ديوانه: قصائد في الأربعين - الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت 1979، ص 296.

(لعازر) في قصيدته (لعازر 1962)[1] عبّر من خلالها عن مأساة الأمة العربية، وعن تجربتها في الانبعاث المشوّه الذي هو أقسى من الموت. وقد أسقط الحاوي تجربته المعاصرة على لعازر الذي اتخذ قناعاً، يتحدث من خلاله عن الإنسان العربي الذي عانى آلام الانبعاث المشوه، فاستعصى عليه تغيير الواقع المهترئ، فتحوّل من مناضل إلى عميل. ومن خلال سقوطه جرّ معه زوجته إلى الجحيم، فانتصر فيه الشر على الخير، ومات لديه كل أمل بانبعاث أصيل، حتى أن المسيح - رمز القوة الغيبية - عجز عن بعث الحياة فيه، لأن المعجزة الغيبية تأتي من الخارج، بخلاف الانبعاث الأصيل الذي هو تفجّر من أعماق الذات العربية.

وقد استهل الحاوي قصيدته بصورة حفار القبور وهو يعدّ حفرة ليواري فيها (لعازر) الميت، فيخاطبه لعازر قائلاً:

عمّق الحفرة يا حفّار
عمّقها لقاع لا قرار
يرتمي خلفَ مدار الشمس / ليلاً من رماد / وبقايا نجمة مدفونة خلف المدار

ويبدي لعازر في مستهل القصيدة حنينه للعودة إلى رحم الأم / الأرض. ولكن حنينه يختلف عن حنين الإنسان الذي يسعى بعودته إلى رحم الأرض إلى الانبعاث. فلعازر يريد حفرة (خلف مدار الشمس) لا تصل إليها حرارة، ولا تنبض فيها حياة، حيث يهيمن ليل سرمدي لا ينبعث منه نهار. لأن لعازر يريد موتاً لا انبعاث له.

بيد أن المسيح يبعث لعازر بعد موته. فيعود إلى الحياة. ولكنه يعود ميتاً. وتكتشف زوجته أنه بُعث ميتاً، فتقول:

كان ظلاً أسودا يغفو على مرآة صدري
زورقاً ميتاً على زوبعة من وهج نهديّ وصدري
كان في عينيه ليلُ الحفرة الطيني يدوي ويموج / عبر صحراء تغطيها الثلوج
عبثاً فتّشتُ فيها عن صدى صوتي وعن وجهي وعينيّ وعمري.

وتقحل الأرض، وتتعرى زوجة لعازر لتثير رغبته الجنسية، من أجل إخصابها، وبعث الحياة من الموت، ولكنه يعجز عن إخصابها، وتنتصر شهوة الموت فيه على إرادة الحياة، وبدل أن يهطل المطر، تُسقط السماءُ كبريتاً وناراً، وتعاني الأرض الآلام، فتقول زوجة لعازر:

يتشهّى وجعي، يُشبع من رعبي نيويه
كنت أسترحم عينيه وفي عينيّ عار امرأة أنّتْ تعرّتْ لغريب
ولماذا عاد من حفرته ميتاً كنيب.

[1] خليل حاوي - ديوانه: بيادر الجوع - الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت 1972، ص 307.

و(لعازر) هو رمز البعث بعد الموت، ولكنه - عند حاوي - لا يمثل البعث والازدهار. و(لعازر) هو (الخضر) الذي يصارع التنين الذي يمنع الماء عن الناس والأرض، فيصرع الخضرُ التنينَ ليعيد الخصب للأرض اليباب، ولكنه - عند حاوي - ينهزم أمام التنين، بدل أن يهزمه. والتنين ليس حقيقة خارجية منفصلة عن لعازر، بل هو جزء من ذاته. والصراع بينهما هو صراع داخلي. وزوجة لعازر هي الأرض اليباب، وهي المرأة التي يقدمها فدية سكان المدينة التي استولى عليها التنين، فهي بانتظار الفارس المخلّص الذي سيصرع التنين، ويفكّ أسر الضحية. ولكن يتبيّن أنه ليس بطلاً ولا مخلصاً. فتعاني زوجته الموت المرير، ويهيمن الليل البارد، وتسقط الثلوج، ويسيطر العدم، ويتراءى لها - وسط الظلمة - طيف المسيح المخلص. ويصبح المسيح في وعيها هو لعازر، لأنه لم يرو شهوة مريم المجدلية التي زحفت إليه لاهثة تحاول إغراءه. ولكنه ترفّع عن التجربة الحسية، ولم تتحرك فيه شهوة جنسية. فأصبحت زوجة لعازر كأنها مريم المجدلية التي تحترق شهوة، وتظل صحراء لا يخصبها لعازر:

يوم أنّتْ مريم، يوم تداعتْ
زحفت تلهث في حمّى البوارْ، وأزاحت عن رياح الجوع / في أدغالها صمت الجدار
وسواقي شعرها انحلّت على رجليك جمراً ونار.

وتتمنى الآلهة الأم الكبرى (عشتروت) أن تنبض الرغبة في عروق الإله (بعل) - وهو أيضاً (تموز) - علّه يشبع شهوتها. وتصبح هي فرساً تنتظر فارسها الذي يقتل التنين ويمتطيها. فيعيد الخصب للأرض اليباب. ولكن (بعل) أيضاً يقف عاجزاً لا يستجيب. وتحلّ المأساة عندما تكتشف زوج لعازر أن عنصر الشرّ قد انتصر، في نفس زوجها، على عنصر الخير، فأصبح لعازر هو التنين، وزال كل أمل في عودة الخصب إلى الأرض اليباب:

حسرة الأنثى تشهّتْ في السرير
مهّدتْ صهوة نهديها، تهاوت زورقاً يلهث في شطّ الهجير / خلف بعل لا يجير
... ميتاً خلفته في الدار تنيناً صريع.

ويموت لعازر، وتتشهّى زوجته أن تموت مثله. وتنتهي دورة القصيدة بما بدأت به: حفرة القبر التي أُعِدّتْ للعازر، فتحولت زوجته إلى أفعى. وينتهي كل أمل في خلاص الأرض. وعلى هذا فإن قصيدة (لعازر 1962) هي أسطورة من أساطير الموت والانبعاث، شهد بطلاها - لعازر وزوجته - تحولات كثيرة. ولكن الأرض ظلت يباباً، دون مخلص، ولا ربيع، كما هي أرض ت. س. إليوت في قصيدته (الأرض اليباب) التي ألقت

بظلها على معظم آداب العالم.

كذلك عبّر بعض شعرائنا المعاصرين من خلال شخصية النبي (أيوب) (عليه السلام)، رمز الصبر على البلاء، والإيمان بقضاء الله في المحن. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الملامح في شخصية أيوب:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[1]

(. . .إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[2]

ولما سقط السياب فريسة المرض والشلل - أواخر حياته - وسعى إلى المعالجة في بيروت ولندن والكويت، دون جدوى، فصرعه المرض، وجد في (أيوب) المعبّر عن معاناة المرض، حيث لم يجد مَنْ يلوذ به سوى الصبر على البلاء، والإيمان بالله، وذلك في قصيدته (سِفْر أيوب)[3]:

لك الحمد مهما استطال البلاء / ومهما استبدّ الألم
لك الحمد إن الرزايا عطاء / وإن المصيبات بعض الكرم
... شهورٌ طوالٌ وهذي الجراح / تمزّق جنبيّ مثلَ المُدى
ولا يهدأ الداءُ عند الصباح / ولا يمسح الليلُ أوجاعه بالردى.

وهذه النغمة الأسيانة الحزينة هي أقوال أيوب والسياب، فليس النبي أيوب هنا سوى السياب نفسه، فهو أيوب جيكور الذي رحل إلى لندن للعلاج، فاشتعل الشوق والحنين في صدره على جيكور والعراق وزوجته (إقبال) وولده (غيلان) وطفلتيه (غيداء، وآلاء)، حيث وجد نفسه غريباً، وحيداً في بلاد البرد والثلج والضباب.

كما تقنّع بعض شعرائنا بشخصية النبي (يوسف) (عليه السلام) الذي وردت قصته في القرآن الكريم، حيث كاد له إخوته الأحد عشر، غيرة من جماله وحب والده له، فألقوه في الجب، وعادوا إلى أبيهم بدم كذب، فزعموا أن الذئب أكله. فالتقطه بعض السيّارة، وباعوه لعزيز مصر الذي قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. ولكن زوجة العزيز راودته عن نفسه، وغلّقتِ الأبواب، وقالت: هئتُ لك. ولقد همّت به، وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه، فخرج، فلحقت به، وقدّت قميصه من دبر، وألفيا سيدها لدى الباب. قالت: ما جزاء مَنْ أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم. قال هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها: إن كان

---

[1] سورة الأنبياء: الآية 83.
[2] سورة ص: الآية 44.
[3] بدر شاكر السيّاب - ديوانه: منزل الأقنان - الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت 1987، ص47.

قميصه قُدّ من قُبُلٍ فصدقتْ وهو من الكاذبين، وإن كان قميصُه قُدّ من دُبُرٍ فكذبتْ وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُرٍ، قال: إنه من كيدكنّ، إن كيدكن عظيم.

وقد أخذ كل شاعر من الشعراء الذين تقنّعوا بشخصية يوسف، من قصته، ما يلائم تجربته الذاتية، فالشاعر محمد القيسي أخذ منها حادثة إلقاء يوسف في الجبّ، فالفلسطيني المعاصر ألقاه - أيضاً - إخوته العرب في جب العدو، دون أن يمدّوا له يد العون أو المساندة، فقال في قصيدته (يوسف الجب)[1] من خلف قناع يوسف:

قيّدني إخواني / ورموني في الجب
قتلوني بجواب الصمت
قتلوني يا حادي الركب لأنني أحببتْ.

كذلك أخذ الشاعر محمد سعيد الصكّار من القصة حادثة الجب، ففنّد مزاعم «إخوة» يوسف الذين قالوا لأبيهم إن الذئب قد أكله، فتقنّع الشاعر بشخصية (يوسف) وقال في قصيدته (يوسف في غيابة الجبّ)[2]:

الذيب لم يلعق دمي فالذيب يا أبي / ما مرّ بي يوماً، ولم أشهد له عيون
الذيب ما كان، ولن يكون
لكنها «مواهب» الإنسان.

كذلك تقنع عبد العزيز المقالح بشخصية يوسف في قصيدته (من حوليّات يوسف في السجن)[3] فجعل القصيدة في (حوليات)، تعبّر كل حولية فيها عن قضية عاناها يوسف، وجعل القصة تنزاح عن مسارها التاريخي، حيث جعل يوسف يفضل الحياة في الجب على الحياة وحيداً، ففي (حولية 1968) يقول الشاعر من خلال قناعه يوسف:

حين جاءتْ إلى الجبّ قافلةٌ / ومن الجب أنقذني أهلها
... أصرخ في وحدتي: ليتهم تركوني هنالك في الجبّ يشربني ماؤه.

وفي (حولية 1970) جعل الشاعر امرأة العزيز زانية، ينعكس غضب العزيز عليها لهباً وسياطاً.

وفي (حولية 1971) يتحوّل الوطن إلى سجن كبير يطال حتى الحيوان والنبات.

وفي (حولية 1973) خالف الشاعر الحقيقة التاريخية، فجعل يوسف يراود امرأة العزيز عن نفسها، خلافاً لما كان:

ومن الآن سوف أراودها أنا عن نفسها
وأشقُّ القميص بأنفاسي الداميات الأظافر
أعرف أن محاسنها ذبلت / والغضون تحاصرها / يقضم الدود أثداءها

---

[1] محمد القيسي - الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية - بيروت 1987، ص47.
[2] محمد سعيد الصكّار، مجلة الآداب، ع 3 عام 1966، ص109.
[3] عبد العزيز المقالح - ديوانه، دار العودة - بيروت، ص 546.

... لكنها السنوات العجاف.

ومن الواضح أن المقالح يؤرخ في (حولياته) للمقاومة الفلسطينية، وأنه عندما يجعل قصة يوسف التاريخية تنزاح إلى أن يوسف هو الذي راودها، فإنما يعني نفسه: العربي الذي راود وأراد وطنه السليب، على الرغم مما يعانيه هذا الوطن من آلام.

وللشاعر الفلسطيني محمود درويش قصيدة قناع (يوسف) في ديوانه: ورد أقلّ.

2- أقنعة الصحابة:

أكثر ما وظّف شعراؤنا المعاصرون شخصية (الحسين بن علي) شهيد كربلاء الذي غادر الحجاز إلى العراق، بدعوة من أهلها، لينصّبوه خليفة. ولكن الجيش الأموي اعترضه ومَنْ معه في (كربلاء)، فقطع عنهم الماء، فتخلّى عنه أصحابه إلا نفرٌ قليل ظل يقاتل بهم حتى استشهد، فأصبح رمزاً أعلى في الشهادة من أجل الأفضل، ومن هنا اتخاذه قناعاً من قبل بعض الشعراء المعاصرين للثورة على القيم الفاسدة في هذا العصر الجبان.

ولعل أدونيس يفوق غيره من الشعراء في الإفادة من معطيات شخصية الحسين، لكون الحسين إمام شيعته. ولهذا يبدو أدونيس مرتاحاً إلى هذا الرمز، يجود بشعره فيه، وذلك في مقطع (مرآة الشاهد) من قصيدته (مرايا وأحلام حول الزمن المكسور) حيث يعادل فيه بين رمز الحسين ورمز المسيح، وحيث تشارك الطبيعة في كل مظاهرها بالحزن على الحسين:

وحينما استقرت الرماح في حشاشة الحسين / وازّيّنت بجسد الحسين
وداست الخيول كل نقطة في جسد الحسين / واستلبتْ وقمّصتْ ملابسَ الحسين
رأيتُ كل حجر يحنو على الحسين / رأيتُ كل زهرة تنام عند كتف الحسين
رأيتُ كل نهر يسير في جنازة الحسين.

كما تجلّت أسطورة الحسين في أكثر صورها اكتمالاً في قصيدة أدونيس (الرأس والنهر) ومع أن الشاعر لا يذكر فيها اسم الحسين، إلا أن استشهاد الحسين جاء مضمراً فيها، حيث تصور القصيدة نكسة حرب حزيران 1967 التي تعادل - عند أدونيس - فاجعة كربلاء. ويكتسب الرمز عمقاً تاريخياً، وتتوازى نكسة الحاضر بنكبة الماضي، ولكن الإيمان بالانبعاث يخفض من وضع مأساة الموت. فالحسين - في عقائد الشيعة - لم يمت، لأن الأئمة أحياء عند ربهم. وهم ينتظرون المهدي الذي سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. ويسقط المطر - في نهاية القصيدة - مؤكداً انبعاث الأرض بعد مواتها. ويصبح الحسين صورة عن إله الخصب الميت المنبعث الذي يتصل بالأرض / الأم لإخصابها، ومسيحاً تُثقب جبهتُه، ويصبح

جسده قرباناً يتناوله المؤمنون ليكتسبوا حياة أبدية، ويقطع جسده فتتناثر أشلاؤه مثل أوزيريس:

اثقبوا جبهتي، قيّدوني
وخذوا حربةً وانحروني
مزّقوني، كلوني.

ثم يسكن الحسين في مظاهر الحياة جميعاً، لأنه معطي الحياة والربيع للأرض الموات:

أكون كالرعد / صوتاً حاضناً برقه، وكالبرق نارا
دمي الضوء والمسافات يا شمسُ...
لا أعرف التخوم لا تحدّني الشطآنْ
تحدّني علامتان: الشمسُ والإنسانْ.

وكذلك يتقنع الشاعر فايز خضور بالحسين، وذلك في قصيدته (اعترافات الحسين بن علي)[1] يعبّر فيها عن مأساة المناضل العربي في الواقع الراهن. ويدين هذا الواقع من خلال شخصية الحسين ويتماهى بالحسين فيقول:

ذاهلٌ، خطأ لقّبوني «الحسين»
ذاهل، كيف شكّوا برأسي / - زمان الوقيعة - رمحاً / وصاحوا: أبشروا نبتتْ سُنبلهْ؟!
ذاهل: كرّسوني شهيداً، وهم قتلوني.

ثم يلتفت الشاعر إلى الواقع العربي الراهن، فيرى التناقضات تتآكله، كما كانت الفرق والجماعات تأكل بعضها بعضاً أيام الحسين، فيقول بلسانه، من وراء قناعه:

ظلمتني عائشهْ / حين ظنّت أنني أومِنُ بالغيب، وأدعو للإمامهْ
كنتُ أدعو لمصير عربي / يمنح الكون سلامهْ
لا لعرش دموي.

ثم تتداعى إلى ذهنه الوقائع: خيول الفرس على أبواب الموصل، وخيول الروم على أبواب دمشق، فينادي صقر قريش. ولكن لا مجيب، فيمضي في تصوير واقعنا الراهن:

قطط سود، ولنا ذنب / ولنا تاج، ولنا رتب
ولنا - رغم سيوف الموت الرائد - ألقاب الأحياء:
وامعتصماه.

وقد تناصّ الشاعر فيها مع مقبوسات كثيرة من شعر غيره.

وكذلك تقنّع خالد محيي الدين البرادعي بشخصية الحسين، فاتخذه قناعاً في قصيدته (الحسين مقتول في كل مكان)[2]. روى فيها قصة خروج الحسين من الحجاز إلى العراق، لإنقاذ المسلمين من السلطة القائمة آنذاك، وتماهى معه، فهو أيضاً يريد أن

---

[1] فايز خضور - ديوانه: كتاب الانتظار، اتحاد الكتّاب العرب - دمشق 1974، ص12.
[2] خالد محيي الدين البرادعي - ديوانه: تداعيات المتنبي بين يدي سيف الدولة، اتحاد الكتّاب العرب - دمشق 1976، ص91.

ينقذ الوطن من المفسدين الذي ولغوا فيه، فما شبعوا. يقول الشاعر من خلف قناع الحسين:

لأنقذكم من النفي غادرتُ أمَّ القرى
وأولجتُ، في ليلة، خبّأ الثلج أطرافها
وجئتُ لأهدمَ سدّاً حصرتم أمانيكم خلفه.

كما استدعى بعض الشعراء المعاصرين شخصية (ورقة بن نوفل) ابن عم خديجة بنت خويلد، زوج الرسول $. وقد كان نصرانياً قبل أن يبعث الله محمداً بالرسالة الإسلامية. وقد حدّث النبي $ خديجة عندما جاءه الوحي في غار حراء، حيث كان يجاور شهراً من كل سنة. فقالت: أبشرْ يا بن عمّ واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة تنبئه بما أخبرها به رسول الله $. فقال ورقة: قُدُّوس. قدوس. والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتيني يا خديجة. لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيّ هذه الأمة. ولئن أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه[1].

وقد تقنّع الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور بورقة بن نوفل الذي كان ينتظر بزوغ فجر الإسلام، ليصبح واحداً من المسلمين، كذلك فإن شاعر اليوم الذي كان ينتظر بزوغ فجر المقاومة الفلسطينية. آمن بها، في مرحلة أولى، ولكنه تخلّى عنها بعد ذلك، حين وجّهت بنادقها إلى صدور أبناء منظماتها الأخرى، ثم قبل بكيان حكومي هزيل أصبح فيه وزيراً.

ومن الملاحظ أن الشعراء المعاصرين لم يتقنّعوا بأقنعة الملائكة كشخصيات فاضلة، وذلك لاستحالة معرفة حياتها، ولا بأقنعة الشخصيات المنبوذة كإبليس، وقابيل، وغيرهما، لأن اللعنة قد حلّت عليهم، لتمرّدهم على إرادة الله.

[1] ابن هشام: السيرة النبوية، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، ص 1 / 238.